جوهرية النفس الانسانية

د. محمود فهمي زيدان

(١)

الحاجة الى جوهر :

الحياة العقلية فى الإنسان حقيقة واقعة ، لم ينازع فيلسوف — مهما كان إتجاهه الفلسفى — فى أن الإنسان حالات نفسية وحوادث عقلية ، وإنما يختلف الفلاسفة فى طبيعة تلك الحياة العقلية ، أهى من طبيعة مادية أو لا مادية . نثير فى هذا البحث موضوع ما إذا كانت الحياة العقلية فى الإنسان محتاجة إلى ما يسميه بعض الفلاسفة « بالجوهر ». رأى بعض الفلاسفة أن الحالات النفسية والحوادث العقلية محتاجة بالضرورة إلى جوهر وأن ما نسميه النفس أو العقل هو هـــذا الجوهر[١] ، وأنكر البعض الآخر وجود هذا الجوهر . ويوضح فلاسفة الجوهر موقفهم بقولهم : (ا) إن الحالات النفسية محتاجة إلى شيء يقوّمها فلا معنى لتفكير من غير كائن مفكر ولا تذكر بدون إنسان يتذكر وهكذا ، وهذا الذى تسند إليه الحالات هو الجوهر ، (ب) إن الجوهر بمثابة علة تصدر عنها تلك الحياة العقلية ويقوم ذلك على إعتبار مبدأ العلية مبدأ راسخاً لا يمكن لأحد إنكاره . نلاحظ أن بعض فلاسفة الجوهر يضيفون إلى المعنيين السابقين للجوهر معنيين آخرين : (حـ) أن الجوهر هو المبدأ الذى يربط الحالات النفسية والحوادث العقلية فى تعددها وكثرتها وتميزها وتداخلها ويوحّد بينها وإلاّ لا نستطيع القول

---

(١) نستخدم النفس والعقل هنا لفظين مترادفين ، وهما كذلك فى إستخدام الفلاسفة المحدثين والمعاصرين ويعنون بهما الجانب الذى بالإنسان غير بدنه ، بينما النفس والعقل متميزان فى المعنى فى الأديان والفلسفات الدينية .

إن خبراتي المختلفة المتميزة في أوقات مختلفة إنما تنتمي إلى شخص واحد. ونفضل أن نعزل هذا المعنى للجوهر عن المعاني السابقة ونجعله تصوراً مختلفاً يسميه بعض الفلاسفة تصور « وحدة العقل » أو « الذاتية الشخصية » Personal identity وهو تصور مختلف عن تصور الجوهر. (ى) إن في الجوهر معنى الاستقلال ومن ثم فيمكن للنفس أن تكون مفارقة للجسم، ويمكن أن توجد بدونه. ونفضل أن نعزل هذا المعنى للجوهر أيضا ونجعله تصوراً متميزاً عن الجوهر هو تصور « النفس المفارقة للبدن » disembodied Self . والفلاسفة الذين يرون النفس الانسانية جوهراً بالمعاني السابقة أو ببعضها كثيرون أبرزهم أفلاطون وديكارت لوك وبركلي وليبنتز. ولقد أنكر جوهرية النفس الانسانية فلاسفة محدثون كثيرون، ولعل مالبرانش أول هؤلاء من الفلاسفة العقليين وهيوم من الفلاسفة التجريبيين، ويكاد يتفق أغلب الفلاسفة المعاصرين الذين يهتمون بمشكلة النفس أو العقل مع هيوم في إنكاره للجوهر النفسي وسوف نشير إلى مواقف هؤلاء في فقرة قادمة من هذا البحث.

المصدر اللغوي لتصور الجوهر :

الجوهر Substance مصطلح فلسفي، وقبل أن نوجز معناه عند الفلاسفة، نلاحظ أن تلك المعاني ترتبط بطريقة استخدامنا لبعض الألفاظ والعبارات. ونقدم الملاحظات التالية:

(ا) نقول في وقت ما إن فلانا يمشي، وفي وقت آخر إن نفس الشخص يتحدث أو يعمل أو يجري ... إلخ، ونقصد أن تلك الحوادث المختلفة المتباينة إنما تنتمي إلى شخص واحد لا تتغير هويته وسط ما يوصف به من أحداث متباينة.

ولقد كانت هذه الطريقة في الحديث مصدر أحد معاني الجوهر عند الفلاسفة

وهو أنه الموضوع الثابت للتغير أو أن الجوهر هو الشيء الواحد الثابت الذى تتبدل عليه مختلف الصفات .

(ب) الصفة دائما فى حاجة إلى موصوف وإلا لا معنى لاستخدام الصفة. الحركة فى حاجة إلى شيء يتحرك ، والحمرة فى حاجة إلى شيء يكون أحمر اللون لتبدو هذه الحمرة لنا فى الإدراك ، والتفكير فى حاجة إلى كائن مفكر وهكذا . ولقد كانت هذه العلاقة بين الصفة والموصوف هى نفس العلاقة بين الأعراض والجوهر عند الفلاسفة . الأعراض هى الصفات والجوهر هو الشيء الذى تستند إليه تلك الصفات ، ولقد كانت هذه العلاقة بين الجوهر والعرض هى المصدر اللغوى لفكرة الحمل Predication فى المنطق ، وصياغة القضية الحملية التى تتألف من موضوع ومحمول ، يعبر الموضوع عن شيء ما مفرد جزئى ، ويعبر المحمول عن عرض أو صفة تسند إليه . نسند الشكل الكروى إلى الشمس والصلابة إلى الحديد كما نسند التفكير إلى الانسان ، وهكذا .ومن ثم يصبح الجوهر موضوع الحمل . ويعتبر أرسطو أول من وضح فكرة الحمل وأفاض فيها وجعلها أساساً لنسقه المنطق كله .

(ح) إستخدام بعض الفلاسفة فكرة العلاقة اللغوية بين الموصوف والصفة ، وبالتالى فكرة العلاقة المنطقية بين الموضوع والمحمول أساساً لمعنى ثالث للجوهر .

مادمنا نعبر عن ملاحظتنا الشيء ما فى جملة خبرية أو قضية حملية تنطوى على تمييز بين المسند إليه والمسند ، أو بين الموضوع والمحمول ، فيجب أن نميز أيضاً فى الواقع بين الشيء وصفاته أو أن الشيء الجزئى — سواء كان شيئاً ماديا جزئياً أو إنساناً — أكثر من مجموع صفاته . نقول عن البرتقالة مثلا أنها مستديرة وأن لها وزناً وحجماً ولوناً وطعماً وملمساً معينا إلخ ولذلك نقول إنه يجب أن

تسند هذه الصفات إلى شيء تقوم فيه هو جوهرها . وبالمثل نقول إن الإحساس والادراك والتذكر والتخيل فى حاجة إلى شيء تقوم فيه هو جوهرها وهو النفس. ونعبر عن هذا الجوهر بقولنا إنه « حامل الصفات » وهو مذهب جون لوك . لا يقول أن التفكير صفة للإنسان وإنما صفة للنفس المتميزة من الجسم الإنسانى[٢] . قد يقال إننا نشير إلى الشيء بلفظ ونشير إلى صفاته بألفاظ أخرى مثلا نشير إلى المنزل بلفظ « منزل » وإلى سطحه وأرضه وحوائطه بألفاظ أخرى، لكن لا يعنى هذا أن المنزل شيء آخر غير مجموع أجزائه . لكن دعاة الجوهر يردون على الاعتراض بقولهم إن علاقة الشيء بأجزائه مختلفة عن علاقة الشيء بصفاته ، فليس من الممكن أن تنزع من الشيء صفاته نزعا حسياً كما تنزع منه بعض أجزائه ، ذلك لأن بالصفات سمة العمومية ، وبالشيء صفة الجزئية والفردية . وإذن فالشيء متميز من مجموع صفاته بمعنى ما[٣] سنوضحه عند الفلاسفة بعد حين .

نلاحظ أن هذه المصادر اللغوية يمكن تركيزها فى فكرة الحمل ؛ ولقد ذهب بعض النقاد من الفلاسفة إلى أن فلاسفة الجوهر أقاموا فكرة الجوهر على أساس الفكرة المنطقية للحمل لكنهم يضيفون أيضاً أن ظاهرة الحمل ليست عامة فى جميع اللغات الانسانية وإنما مقصورة فقط على اللغات الهندية الأوروبية كاليونانية والألمانية والانجليزية والفرنسية . ومن ثم لا يعبر تصور الجوهر عن مقولة عامة

---

(٢) J. Locke, Essay Concerning Human Understanding, BK II. Ch. Xxiii, Sec. 3

(٣) قارن : A. Quinton, The Nature of Thinking, London, 1973, pp 12 — 15

فى الواقع(٤) . لكن أبان البحث اللغوى أن ظاهرة الحمل قائمة فى كثير من اللغات غير الهندية الأوروبية كالعربية والعبرية والصينية والروسية ولغة مالى وغيرها(٥) .

نلاحظ أن بعض الفلاسفة القائلين بالجوهر أقاموا نظريتهم فى الجوهر على أساس فكرة الحمل المنطقية، كما أن بعض الفلاسفة المنكرين للجوهر أقاموا انكارهم على أساس أن فكرة الحمل ليست ظاهرة عامة فى كل اللغات ، لكننا نرى أن الحمل ليس أساس تصور الجوهر حتى بعد ما تبين لنا أن الحمل قائم فى كل اللغات. نعم إذا أردنا أن نعبر عن وجود شىء وصفاته فى قضية فالمألوف أن نصوغها فى قضية حملية ، لكن ليس من علاقة ضرورية بين الحمل والجوهر ، فقد نأتى بقضية حملية ولا تعبر عن جوهر مثلما نقول « الحرب شر مستطير » ، ولا يعتقد أحد أن الحرب جوهر ، وقد نأتى بعبارة غير حملية لكنها تدل على جوهر مثلما نقول « حكمة سقراط » فى سياق معين تقصد إسناد الحكمة إلى سقراط ، وهكذا. لا نريد تقرير أن لا علاقة بين ظاهرة الوصف اللغوى والحمل المنطقى من جهة أخرى وإنما نميل فقط إلى القول أن الحمل ليس أساساً للقول بالقول بالجوهر بل أن وجود الأشياء الجزئية وأفراد الناس فى الواقع هو الأساس الميتافيزيقى لفكرة الحمل فى المنطق والوصف فى اللغة .

معانى الجوهر عند الفلاسفة :

كلمة « جوهر » مصطلح فلسفى كما قلنا ، واستخدام الفلاسفة له قديم قدم

---

(٤) أنظر Russell, An Analysis of Mind, London, 1921, P. 212 A. Flew, (ed.), Essays in Conceptual Analysis, London, 1960, P.6 : وأيضاً

(٥) Entwistle, Aspects of Language, London, 1953, Ch .4.

الفكر الفلسفي منذ نشأته لكن يعتبر أرسطو أول من قدّم في وضوح وتفصيل تعريفات الكلمة وأهمية التصور وقيمته ، ولقد تأثر كثيره من الفلاسفة على مر العصور حتى القرن الثامن عشر على الأقل بنظريته — أو بنظرياته — في الجوهر ، بين قبول أو تعديل وتطوير أو هجوم . ولا نريد الدخول هنا في متاهة تاريخية عن البحث في النظريات المتعددة في الجوهر عند مختلف الفلاسفة ، لكننا نريد الوصول إلى قضايا موجزة عن المعاني الأساسية للكلمة ، توطئة لبحث ما إذا كانت النفس الإنسانية جوهراً متميزاً من حالاتنا النفسية وحوادثنا العقلية كما رأى بعض الفلاسفة . ويمكن حصر تلك المعاني الأساسية في الخمسة الآتية : —

١ — الجوهر هو الموضوع الحقيقي للحمل Ultimate subject Predication

وإذا عبرنا عنه بلغة الحدود المنطقية قلنا إنه الحد الذي يكون موضوعا دائماً في قضية حملية ولا يمكن أن يكون محمولا . وذلك أول تعريفات الجوهر عند أرسطو . ووجد أرسطو تطبيقا لهذا المعنى في أي شيء مادي جزئي أو أي شخص ، أو ما يسميه أرسطو (الفرد) individual ، ورأى أن هذا التعريف أكثر تعريفات الجوهر تحديداً وصدقاً . يمكننا أن نقول عن أي إنسان أو حيوان معين أو أي منضدة أو مقعد أو شجرة إلخ أنه جوهر ، نسند إلى أي من هذه الكائنات عدداً عديداً من الصفات لكنه هو ذاته لا يمكن أن يكون صفة تسند إلى شيء آخر[٦] . وإن اختلف المناطقة أو الفلاسفة المحدثون عن أرسطو في تعريفاته الأخرى للجوهر فإن أحداً لم ينقض أرسطو في هذا التعريف في المجال المنطقي . فالقضية الحملية بالمعنى الدقيق في المنطق الرمزي هي القضية الشخصية فقط ، لكن الفلاسفة المحدثين يختلفون عن أرسطو في ما صدقات هذا التعريف فمنهم من يتفق معه ، أو يختلف عنه ، فديكارت مثلا جعل الله جوهرا كما جعل النفوس الإنسانية والمادة ككل في الكون جواهر ، وسبينوزا جعل الله أو الطبيعة ، جوهرا ، وليبنتز جعل المونادات جواهر وهكذا .

---

(٦) Cat. 2 a 11

٢ ـــ الجوهر هو الماهية essence أو الخاصة الأساسية التى تعطى للشيء الجزئى وجوده وحقيقته ، وهذا هو ثانى تعريفات الجوهر عند أرسطو ، فإن زيداً أو عمروا مثلا جوهر بالمعنى الأول لكن الحيوانية والتفكير مثلا كصفات أساسية تؤلف ماهية الإنسان هى الأخرى جواهر بالمعنى الثانى . ويجد هذا التعريف الثانى تطبيقا على الأجناس والانواع عند أرسطو ، ويسمى أرسطو الجوهر بالمعنى الثانى المعنى الثانوى للجوهر فى مقابل المعنى الأولى للجوهر الذى يقال على التعريف الأول[٧] ولقد تأثر كثير من الفلاسفة بهذا التعريف للجوهر وإن اختلفوا عنه فى الصياغة فمثلا نجد ديكارت يقول إن النفس الإنسانية جوهر ماهيتها فكر وإن المادة جوهر ماهيته امتداد وما إلى ذلك .

٣ ـــ الجوهر هو ما لا يحتاج فى وجوده إلى أى شيء آخر أو ماله وجوده المستقل استقلالا مطلقا عن أى شيء آخر[٨] . وهو المعنى الأصيل للجوهر عند ديكارت الذى يجعل الله التطبيق الأصيل للجوهر . نلاحظ أن ديكارت يطبق هذا التعريف أيضا على النفوس الإنسانية والمادة ويقول إنها كائنات مستقلة إلا عن الله .الواقع أن ديكارت يخلط هذا التعريف بتعريف آخر للجوهر وهو « ما يعتمد عليه بالضرورة وجود الصفات»[٩] ، وهذه هى صياغته للتعريف الأول الأرسطى وهو ما يكون الموضوع الأصيل للحمل . نقول إن ديكارت يخلط التعريفين لأنه يعتبر النفوس الإنسانية والمادة جواهر بمعنى المستقل وما لا يحتاج لغيره رغم أنه يقول إن هذه الجواهر معتمدة على الله فى وجودها. وحين يبين أنها جواهر مستقلة يطبق التعريف الثانى (موضوع الحمل) وهو أن

---

(٧) Cat 2 a 21—2

(٨) Descartes, The Principles of philosophy.pt.I.princ.51

(٩) Ibid , I 11

النفس الإنسانية تسند إليها صفات هي خبراتها وحالاتها لكن النفس ليست صفة لشيء آخر . فلكي نضع ديكارت وضعاً صحيحاً ينبغي أن نقصر تطبيق تعريفه الأول على الله وتطبيق تعريفه الثاني على النفوس الإنسانية والمادة . نلاحظ ثانيا أن تعريف بعض الفلاسفة بعد ديكارت للجوهر قريب من تعريفه الأول : الجوهر عند سبينوزا هو « ما يوجد في ذاته وما يتصور في ذاته أعني ما لا يعتمد تصورنا له على تصور أي شيء آخر[10] . ويطبق سبينوزا الجوهر بهذا المعنى على الله أو الطبيعة فقط ويجعل له صفات لا متناهية نعرف منها فقط صفتين هما الامتداد والفكر .

٤ — الجوهر هو ما يبقى هو هـو بينما يقبل الصفات المتضادة » Subject of change أو الشيء الذي يظل ثابتاً لا يتغير رغم تبدل مختلف الصفات عليه ، وهو ثالث تعريفات أرسطو للجوهر[11] ويطبقه على أي شيء جزئي محدد سواء كان شيئا مادياً أو إنساناً أو حيوانا فردا . وقد تأثر كثير من الفلاسفة في نظرياتهم في الجوهر بهذا التعريف الأرسطي فإن ديكارت يرى النفس الإنسانية جوهرا لأنها تحتفظ بهويتها في وسط حالاتها النفسية المتعددة المتعاقبة، ويرى ليبنتز الموناد جوهراً لأنه موضوع لمحمولات وموضوع ثابت للتغير ، ويرى كانط أن كمية المادة في الكون هي الجوهر لأنها الشيء الثابت الدائم رغم تبدل مختلف الصفات والحالات عليها .

٥ — الجوهر هو حامل الصفات الأولية Substratum of qualities وهو تعريف بدأت صياغته الواضحة عند جون لوك . ويمكن إيجاز نظرية لوك في الجوهر ومقارنتها بنظرية أرسطو فيما يلي . اتفق لوك مع أرسطو في أن كل شيء جزئي مادي وكل إنسان أو حيوان جوهر بالمعنى الأول للجوهر وهو

(١٠) Spinosa, Ethics, Pr. I. D ef.3.

(١١) Cat, 4a 10

الموضوع الأصيل للحمل . لكن حين نظر لوك فى الشيء المادى وجد أنه مركب من ثلاثة عناصر : صفات حسية أولية (كالامتداد والشكل والوزن والحجم والصلابة والحركة والسكون) وصفات حسية ثانوية (كاللون والطعم والصوت والملمس)، وجوهر بمعنى حامل الصفات الأولية ؛ أما الصفات الحسية أولية وثانوية فإنها موضوع إدراك ومعرفة بينما الجوهر أو حامل الصفات الأولية فليس موضوعا لإدراك أو معرفة وإنما مجهول لنا ، ورغم ذلك نفترض وجوده لسببين وجيهين :

السبب الأول أن الصفات محتاجة لشيء تسند إليه هذه الصفات ، الموصوف هنا ليس الشيء الجزئى ذاته كالمنضدة مثلا — نعم هو جوهر — وإنما الموصوف هنا حامل الصفات الأولية لأننا لا نتصور الامتداد من دون شيء ممتد والشكل بدون شيء ذى شكل والحركة بدون شيء يتحرك وهكذا . ويقول لوك إن لهذا الجوهر ضرورته ولا يقول إن الضرورة هنا منطقية وإنما تصورية أى لا نستطيع تصور صفة حسية بلا حامل تقوم فيه هذه الصفة .

السبب الثانى الذى اعتبره لوك وجيها لإفتراض الجوهر هو أننا نعتبر الصفات الحسية فى الجسم المادى حوادث ، ويطبق مبدأ العلية ويخلص إلى أن الجوهر هو ما تصدر عنه تلك الصفات الأولية . ويطبق لوك نفس التصور على الإنسان، لوك ثنائى يرى الإنسان مركبا من نفس وجسم . النفس جوهر بمعنى حامل الحالات النفسية والحوادث العقلية ويسميها « العمليات العقلية » . تصدر عن هذا الجوهر تلك العمليات كما أننا لا نتصور أن تقوم هذه العمليات العقلية بذاتها وإنما تحتاج دائما لشيء غيرها تقوم فيه(١٢). نلاحظ أن هذه النظرية فى الجوهر بمعنى حامل الصفات تتضمن النظرة إلى الصفات الحسية فى الجسم المادى كما لو كانت موجودات جزئية تقبل الإدراك الحسى بذاتها ورغم ذلك فهى موجودات فى

---

(١٢) Locke, Essay, II. xxiii. 14

أنظر أيضا : R.J.Butler "Substance Un-locked" 'Aristotelian Society, 1974.

ذاتها ناقصة تحتاج لجوهر — يحملها إلى الوجود الحسى . يمكن التماس هذه النظرية فى الجوهر عند أرسطو الذى يقول احيانا عن الشيء الجزئى الفرد إنه حامل حامل الصفات لكنه لم يقصد أن الصفات كائنات متميزة من حامل لها وإنما يقصد أن ثنائية الجوهر والصفات ثنائية منطقية لا تجريبية . الشيء الجزئى فى الواقع شيء واحد وحدة مطلقة وما الصفات الحسية إلا النحو أو الطريقة التى ندرك بفضلها ذلك الشيء ونعرفه . ولكن لوك أحال هذه الثنائية المنطقية الارسطية ثنائية تجريبية . وقد أرشد كانط إلى هذا السوء فى فهم لوك لموقف أرسطو[١٣].

الحمل بين المنطق والميتافيزيقا :

فيما يلى مناقشة متواضعة لتعريفات الجوهر السابق ذكرها . نلاحظ أولا أن التعريفات الأربعة الأخيرة يمكن ردها إلى التعريف الأول الذى يقوم على على فكرة الحمل . فتعريف الجوهر بأنه الماهية يعنى أن لكل موجود صفات اساسية وعرضية تسند إليه أو تحمل عليه وأن تلك الصفات الأساسية هى ماهيته ويقوم ذلك على فكرة أساسية هى أن الصفة صفة لشيء . وتعريف الجوهر بأنه الموجود المستقل عن أى شيء غيره استقلالا مطلقاً لا يجد تطبيقا على عالم الخبرة الانسانية لأنه لا يوجد شيء فى العالم الطبيعى لا يعتمد على غيره فوجود كائن بسيط كالسمك وحياته فى الماء يرتبط — كما لاحظ لوك — بحركات المجموعة الشمسية . فمياه الأنهار والبحار تعتمد على سقوط المطر ، وهذا مرتبط بظروف الجو وهذا بالفصول الأربعة وبدوران الأرض حول نفسها وحول الشمس وهكذا . لعل هذا التعريف يجد قيمته حين يرتبط بتصوراتنا اللاهوتية والميتافيزيقية عن الله ،

---

(١٣) انظر : Kant, Crttiquo, P, 229 — 230 وأنظر أيضاً كتابنا : كنط وفلسفته النظرية ص ١٨١ الفصل ٧ ، الفقرة ٧

أو عن المطلق ، فالله عند الفلاسفة الذين يقررون وجوده مبدأ أول وغاية قصوى وله كل صفات الكمال . لكن هذا التعريف يقوم أيضا على التعريف المنطقى للجوهر وهو أنه الموضوع الأصيل للمحمولات والذى لا يكون ذاته محمولا . أما تعريف الجوهر بأنه الموضوع الثابت لتقبل الصفات المختلفة وتعريفه بأنه حامل للصفات الأولية فانهما يقومان فى أساسهما على التعريف المنطقى . خلاصة القول أن التعريفات الأربعة الأخيرة للجوهر تعتمد إعتمادا أساسيا على الفكرة المنطقية للحمل أو تعريف الجوهر بأنه ما يكون موضوعاً دائما فى قضيته وما لا يمكن أن يكون محمولا .

نلاحظ ثانيا أن كل فلاسفة الجوهر — ماعدا أرسطو — يقيمون نظرياتهم الميتافيزيقية فى الجواهر على تصور الجوهر بالمعنى المنطقى ويرونه تصورا أوليا يعبر عن مبدأ أول . يقول عنه ديكارت إنه مبدأ axiom أو تصور عام Commenum notionem ويعبر عنه بقوله إن الصفات لا يمكن إسنادها إلى عدم وإنما حين ندرك صفة ما أو خاصة ما نستنتج الوجود الضرورى للجوهر الذى تسند إليه تلك الصفة (١٤) ويقول لوك إن فكرة العرض أو الصفة لا يمكننا تصور أنها تقوم بذاتها فذلك منافر لتصوراتنا الأولية عن الاشياء . ولذلك ففكرة الجوهر كشىء تقوم فيه تلك الأعراض أو الصفات فكرة طبيعية فى عقولنا على الرغم من أننا لا نستطيع أن نقول حكما واضحا متميزا عن تلك الفكرة ، فماذا يقول أرسطو فى فكرة الحمل وهو أول من صاغها ؟ الحمل عند أرسطو علاقة بين الكلى والجزئى ، وقصد بالكليات الأجناس والأنواع ، وسمى الحدود الدالة عليها بالمحمولات ؛ وقصد بالجزئيات الأشياء المحدودة فى مكان معين وزمن معين وتقبل الإدراك الحسى ، وينطبق ذلك على كل شىء مادى فى العالم الطبيعى كالمقعد والمنضدة والمنزل والشجرة الخ كما ينطبق على أى شخص أو أى حيوان معين ، كأن الحمل

---

(١٤) Decsartes, Principles, I. 51

علاقة بين الـكليات والأفراد : الـكليات محمولات والأفراد هى الموضوع الأصيل للحمل . لم يُثِر أرسطو ارتيابا فى وجود العالم المحسوس ثم يحاول تقديم برهان على وجوده ، مثلما فعل كثير من الفلاسفة المحدثين وإنما يعتبر وجود الأفراد حقيقة واقعة لا تحتاج إلى برهان ولا مبرر لاثبات وجودها . بل رأى أنه إذا لم توجد أفراد فمن المستحيل أن يوجد أى شىء آخر . ورأى أن الكليات أو المحمولات تسند إلى الأفراد لـكن الفرد لا يمـكن أن يكون محمولا يسند إلى أى شىء آخر . ولذلك سمى الأفراد الموضوع الأصيل للحمل ، وسماها جواهر أولى . ويمـكننا أن نتساءل هنا أيها أكثر سبقا وأوّلية عند أرسطو : الحمل أم الأفراد ؟ والجواب هو أن الأفراد أكثر سبقا ، لأنه يقول إذا لم يكن هنالك أفراد فلا معنى للحمل أو لاستخدام المحمولات . الأصل فى المحمول أن يسند إلى موضوع لا يمـكن أن يكون محمولا ، وذلك معنى الجوهر . رأى أرسطو أن الفرد لا تعريف له (ما له تعريف هو النوع أو الجنس) ذلك لأنه لا توجد صفة فريدة لفرد ما تميزه عن بقية الأفراد المندرجة تحت نوع واحد . لـكن إذا أردنا وصف الفرد وقلنا إنه الموضوع الأصيل للحمل فلا يلزم عن ذلك أن فـكرة الحمل أسبق من فـكرة الفرد ، لأن الحمل لا معنى له إذا لم يوجد الفرد . ولم يقع أرسطو فيما وقع فيه لوك الذى تصور الصفات أو الخصائص كائنـات منفصلة ورغم ذلك لا تقوم بذاتها وإنما تحتاج إلى كائن آخر يحملها . لأن أرسطو رأى أن الفرد شىء واحد وحدة مطلقة وله التفرد والبساطة . نعم الفرد شىء مركب ، قل إنه مركب من مادة وصورة أو من أجزاء لـكن كل جزء إنما به كل صفات الـكل فلا يمـكن عزل شىء عن صفاته . وإذن فالحديث عن الفرد وصفاته أو الجوهر وأعراضه ليس إلا الحديث عن شىء واحد ، وان وسيلتنا إلى الحديث عنه لا تتم إلا بالحديث عن مظاهره أو خصائصه ، وهى أعراضه . وإذن فتصور الفرد تصور أوّلى عند أرسطو صدرت عنه فـكرة الحمل . فالمبدأ الذى ينطوى على الحمل وهو « أن الصفة لا توجد بذاتها وإنما يجب أن تقوم فى جوهر »

ليس مبدأ منطقيا لأنه يمكنك انكاره دون وقوع فى تناقض، لكنه مبدأ تصورى أى أننا لا نستطيع فى خبراتنا الانسانية تصور أى شىء إلا عن طريق صفاته[١٥] وفى هذا المعنى يقول رسل :

« الحمل علاقة تنطوى على اختلاف منطقى أساسى بين حديه .
يمكن أن يكون للمحمولات ذاتها محمولات ، لكن ستكون محمولات .
المحمولات مختلفة اختلافا أساسيا عن محمولات الجواهر ...
الحمل علاقة أساسية إذا كان هنالك أفراد . . . ومن ثم فأفضل تعريف للأفراد أنها كائنات يمكن أن تكون موضوعات فقط لمحمولات .
أو أطراف علاقة — نعنى أنها بالمعنى المنطقى جواهر »[١٦] .

(ب)

النفس الانسانية كجوهر

لم يكن ما سبق تسجيله من أفكار ومواقف سوى مقدمة توضيحية لما نريد بحثه ، وهو ، ما إذا كانت الحالات النفسية والحوادث العقلية فى الإنسان محتاجة بالضرورة إلى جوهر أو أنه يمكننا تصور وجودها بلا جوهر. فلاسفة الجوهر — حين يبحثون فى الإنسان — فلاسفة ثنائيون يرون الإنسان مركبا من نفس وجسم : الانسان فى الواقع كائن واحد لا يمكن تمييز عناصر فيه وإنما المقصود بالتركيب أو الثنائية أن بالإنسان طبيعتين مختلفتين يمكن تمييزهما

---

(١٥) أنظر : Cat Ib 3 — 7 , 2a 11 — 13 , 2b 3 — 6 ; Met 1017 b 15 — 17

وأيضا : Ross, Aristotle, London, 6 th ed , 1964, pp. 165 - 6

(١٦) Russell, « On the Relation of Universals to Particulars» Logic and Knowledge, London, 1956, p. 123.

بالفكر والتصور لا أنه يمكن تقسيم الإنسان قسمة حسية إلى نفس وجسم . والفلاسفة الثنائيون فى النفس نماذج وأصناف يهمنا هنا ذلك الصنف الذى يبدأ بأفلاطون ويتبعه فلاسفة اسلاميون مثل الفارابى وابن سينا وفلاسفة مسيحيون فى العصر الوسيط مثل أوغسطين وأنسلم وتأثر به فلاسفة محدثون يبدأون بديكارت ويتبعه لوك وبركلى وغيرهما . ويهمنا بوجه خاص مدرسة ديكارت التى ترى أن الجوهر النفسى ضرورة تحقق ثلاثة وظائف فيما يبدو : (ا) لا نتصور وجود حالات نفسية كوجدان أو انفعال أو رغبة دون جوهر تكون هذه الحالات حالات له ، كما أننا لا نتصور حوادث عقلية كاحساس أو ادراك أو تذكر الخ دون صدورها عن شيء يحس ويدرك ويتذكر .

(ب) الجوهر النفسى هو علة حدوث الحالات والحوادث ومصدر توحيدها.

(حـ) بالجوهر معنى الاستقلال وفى الاستقلال تميز ومن ثم يمكن تصور أن تكون النفس مفارقة للجسم ، وتستمر فى وجودها بعد فناء الجسم . يهمنا هنا بحث النقطة الأولى فقط لأنها تعتمد — عند قائليها — على فكرة الحمل المنطقية. ان نظرية الكوجتو عند ديكارت تتضمن جوهرية النفس: يقينه المباشر بأن لديه خبرات الإحساس والإدراك والتذكر والتخيل والشك والاعتقاد والرغبة والانفعال (وهى التفكير Cogitatio بالمعنى الواسع) يؤكد ان وجود هذه الحالات والحوادث تؤلف وجوده الحقيقى ، وانها تستلزم وجود جوهر تصدر هذه الحالات والحوادث عنه . ومن ثم قوله إن النفس جوهر ماهيته فكر . وفى ذلك يقول : « لدىّ من جهة — فكرة واضحة متميزة عن البدن وهى أنه وجود ممتد فى مكان لا فكر له ولذلك من المؤكد أنى فى الواقع متميز عن بدنى، ويمكننى أن أوجد بدونه »(١٧) . لكن خبرة الكوجتو لا تحتمل فى الواقع

(١٧): Descartes : Philosophical Writings , translated by Anscombe and geach, London, 1954, Meditation VI, p p. 114-115; Philosophical Works of Descartes. translated by Haldane and Ross, London, 1931, Vol I, p 190.

الوعى بوجود جوهر . كل ما يحتمله الكوجتو هو تقرير يقينى مباشر بحدوث حالات نفسية وحوادث عقلية وقت خبرتى لها . أما تقرير وجود النفس كجوهر فليس جزءا من خبرتى فى الكوجتو . وقد دلّ هيوم على هذا الضعف فى هذه النقطة من فلسفة ديكارت التى تابعه فيها لوك وبركلى وغيرهما . بل يعتبر هيوم بداية لسلسلة متلاحقة فى الفكر الحديث والمعاصر من الهجوم على الجوهر النفسى عند ديكارت .

انكار هيوم لجوهر النفس

كان هيوم فيلسوفا ثنائيا يرى أن النفس أو العقل فى الإنسان متميز فى طبيعته من الجسم . حقيقة واقعة أن بالانسان ظواهر نفسية وحالات نفسية وحوادث عقلية (ويفضل أن يسميها « ادراكات جزئية » Particular Perceptions وهى مرادفة لما يسميه ديكارت « الفكر » بالمعنى الواسع ، وما يسميه لوك « العمليات العقلية ») ، ويرى هيوم أن هذه الحالات والحوادث العقلية ليست فى حاجة إلى جوهر ، بل لا وجود لجوهر عقلى متميز من تلك الحوادث والحالات ، وان ليس العقل إلا كلمة تدل على الظواهر والحالات النفسية والحوادث العقلية مجتمعة . أنا على وعى مباشر ويقين بما يحدث لى من حالات وحوادث عقلية من احساس بألم أو بلذة أو احساس بالبرودة أو الحرارة أو ادراك حسى لأشياء تبدو لى فى العالم الخارجى أو تذكر أو تخيل وتجريد أو انفعال أو عاطفة ، لكنى لست على وعى مباشر أو غير مباشر وليست لى فكرة واضحة (وهى ما يسميه هيوم « انطباع ») عن أى شىء وراء هذه الحالات والحوادث يسمى الجوهر(١٨) . نظر هيوم فى معانى الجوهر عند الفلاسفة فوقف عند تعريف الجوهر بأنه ما يمكن أن يوجد بذاته مستقلا عما عداه وليس محتاجا لأى شىء

---

(١٨) Hume, A Treatise of Human Nature, edited by Silby-Bigge, London, 1888, BK. I. Pt IV, Sec. 9, pp 252 – 3

آخر لكى يوجد ، ورأى أنه إذا كان لهذا التعريف من تطبيق على عالمنا الطبيعى فانه يمكننا اعتبار كل حالة نفسية أو حادثة عقلية جوهرا . ذلك لأن أى شىء يمكننا تصوره بوضوح قد يوجد فى الواقع ، وكل ما قد يوجد يختلف عن أى شىء آخر ومتميز منه ، وما يمكن تمييزه يمكننا عزله فى الخيال عن أى شىء آخر وإذن فكل ادراك جزئى ، مختلف متميز من أى ادراك آخر وعن أى شىء فى الكون ، ويمكن اعتباره وجودا مستقلا وليس بحاجة إلى أى شىء آخر ليهبه الوجود(١٩) .

وقد نتساءل ما قول هيوم فيما قاله ديكارت ولوك وبركلى — السابقون عليه — من أن حالاتنا النفسية وحوادثنا العقلية محتاجة بالضرورة إلى جوهر تقوم فيه كحاجة الصفة إلى شىء موصوف ، وما قوله فى دعوى هؤلاء من أن حالات العقل وحوادثه محتاجة إلى جوهر تصدر عنه كعلة لها . لقد أنكر هيوم - طبقا لتعريفه السابق ذكره للجوهر وتطبيقه له على كل حالة نفسية أو حادثة عقلية — أن تلك الحالة أو الحادثة حالة لجوهر وإنما هى ذاتها جوهر . ليست كل منها صفة وإنما كل منها وجود قائم بذاته . حالاتنا النفسية وحوادثنا العقلية خبرات وهى كائنات عقلية بما هى كذلك فالمعطى الحسى مثلا أو الذكرى أو الانفعال إنما هو شىء جزئى له صفات مثل قيامه فى زمن أو أنه واضح أو غامض حاد أو ضئيل ، سريع أو بطىء ونحو ذلك . أما عن دعوى البحث عن علة حالاتنا النفسية أو حوادثنا العقلية فإن هيوم يقرر أنه لا يمكننا البرهان على أن علة الادراكات الجزئية هى الأشياء المادية الخارجية . نلاحظ فقط علاقة علّية بين أفكار وأشياء . نقول أيضا ان وجداناتنا ورغباتنا وانفعالاتنا تنشأ عن وعينا بانطباعاتنا الحسية . وماذا يقول هيوم عن دعوى فلاسفة الجوهر أن النفس تقوم بعنصر التوحيد بين مختلف حالاتنا النفسية وحوادثنا العقلية فى تميزها

---

(١٩) Ibid, I. IV. 5. pp. 233.

وتداخلها وكثرتها ، يجيب أن خبراتنا ترتبط بقوانين ثلاثة هي التشابه والجوار والعلية . لكن هيوم سجل في تذييله لكتابه الرئيسي عدم اقتناعه بوجاهة هذه الروابط ، إنه حين أنكر ضرورة جوهر النفس وقع في مأزق وحدة النفس فلم يجد تفسيرا لها . واعترف بعجزه عن حل مشكلة وحدة النفس حسب مبادئه التجريبية (٢٠) .

الشك في جوهرية النفس :

لقد كان هجوم هيوم على جوهرية النفس الإنسانية نقطة بدء لسلسلة متلاحقة من مواقف معاصرة تدعم موقفه . وإن شئنا الاشارة إلى أهم الانتقادات التي يقدمها الفلاسفة المعاصرون إلى جوهرية النفس ، فهي كما يلي :

١ ـــ في تصور النفس الانسانية جوهرا غموض كثيف ، لأنك لاتستطيع أن تصف هذا الجوهر أو تحدده سوى أن تقول إنه ما تصدر عنه الحالات النفسية والحوادث العقلية أو أن تنتمي هذه الحالات والحوادث اليه ، ولا يوضح هذا الوصف شيئا لا يمكنك الوصول إلى أوصاف محددة أو شبه محددة للنفس كجوهر لا بطريق الاستبطان ولا بالاستدلال، ومالا نستطيع الحديث عنه بوضوح فأقل ما يجب علينا ألا نتحمس في تقريره .

٢ ـــ القائلون بجوهرية النفس قائلون بلا ماديتها وأنها هي حقيقة الإنسان وماهيته ، وإذن فما معيارنا لتمييز نفس من أخرى أو اختلاف شخص من آخر ؟ لو كان الانسان هو في حقيقته جسم لأمكننا تمييز شخص من آخر بادراك الاختلاف بين جسمين ، لكن الجسم الإنساني عند القائلين بجوهرية النفس ليس دالاً على النفس ، ولو كان معيار وجود الحالات النفسية والعقلية عند القائلين بالجوهر

---

(٢٠) Appendix, P. 626

أن تبدد فى سلوك بدنى ظاهر لكن اختلاف سلوك عن آخر معيارا لتمييز شخص من آخر، لكن أصحاب الجوهر لا يجعلون السلوك معيارا أساسيا للحالات النفسية ولا يقولون إن الحالات النفسية هى ذاتها السلوك لأنهم يرون أن للانسان حالاته وخبراته حتى لو لم يصدر عنها سلوك .

٣ ـ الفلاسفة الذين يبتغون تصورات فلسفية دقيقة واضحة ومن ليست لهم عقائد لاهوتية أو صوفية ، ومن ذوى المزاج التجريبى ينفرون من تصور الإنسان كائنا به عنصر لامادى غير واضح المعالم ويودون لا يستغنون عن جوهرية النفس . لهذه الاسباب وغيرها حاول الفلاسفة من ذوى الاتجاهات الفكرية المختلفة أن يصوغوا نظريات يفسرون بها ظواهر النفس وحوادث العقل دون حاجة إلى إفتراض ذلك الجوهر الغامض . ونشير فيما يلى إلى بعض تلك النظريات .

(ا) السلوكية السيكولوجية التى ترى الحالات النفسية والحوادث العقلية حالات وحوادث تحدث فى الجسم وتقوم على تغيرات فسيولوجية فى الأعضاء وخاصة فى المخ ، وأن لا معنى لاحوال النفس وأحداث العقل سوى نماذج السلوك التى تصدر عن الجسم فى البيئة (واطسون) .

(ب) النظرية الذاتية التى تسوى بين العقل والمخ وتقصد القول أنه على الرغم من أن للحالات النفسية معنى ومنطقا غير معنى ومنطق التغيرات الفسيولوجية والحركات البدنية فإنه إذا كان لنا أن نسأل عن مصدر تلك الحالات النفسية والحوادث العقلية فإن مصدرها هو الجهاز العصبى المركزى أو حتى المخ فقط (فايجل ومدرسته) ؛ وتجعل هاتان المدرستان الإنسان كائنا ماديا بحتا وتفسر كل حالاته النفسية وحوادثه العقلية فى إطار علمى وظائف الأعضاء والاحياء .

(حـ) السلوكية الفلسفية التى ترى أن النفس أو العقل ليس شيئا غريبا على

البدن تصدر عنه حالاتنا النفسية والعقلية وإنما هو مجموعة قدرات أو استعدادات للسلوك dispositions to behave . لا يتحتم أن تكون الحالات الشعورية سلوكا فعليا فى البيئة وإنما استعدادات للسلوك حين تتوفر ظروف معينة (كارنب ورايل) . ولا تجعل هذه المدرسة الانسان كائنا ماديا بحتا يخضع خضوعا تاما للقوانين التجريبية وحدها وإنما هو كائن مادى فريد فالإنسان ليس آله ولا حتى آلة يركبها عقل ، ولكنه — إنسان وذلك تحصيل حاصل جدير بأن نتذكره أحيانا .

(د) الواحدية المحايدة التى ترى أن أفضل طريقة لتفسير العقل الإنسانى أن نبدأ برفض الثنائية الحاسمة بين العقل والمادة فى الكون وانهما من طبيعتين مختلفتين وإنما تقول أن العقل والمادة يرد كلاهما إلى مادة أولى صدرا عنها ويختلف الوجود العقلى والوجود المادى طبقا للعلاقات القائمة بين مضمون كل منهما وللقوانين المختلفة التى يخضع لها كل منهما فالعلاقات والقوانين فى حالة العقل سيكولوجية وفى حالة المادة تجريبية . وتسمى الواحدية المحايدة هذه المادة الأولى حوادث أولية، وتنحصر فى المعطيات الحسية Sense data والصور الذهنية images لكن هذه الحوادث لا تقوم فى المخ ذلك لأن المادة وحركاتها هى الأخرى مركبة من حوادث بالمعنى السابق (وليم جيمس ورسل) .

(هـ) نظرية الشخص كتصور أولى Person asa primitive Concept والمقصود ألا نبدأ بالحديث عن النفس على أنها ماهية الإنسان ولا الظواهر النفسية على أنها من طبيعة مخالفة لطبيعة البدن ولا بالانسان على أنه جسم وانما نبدأ بتصور الانسان تصورا أوليا بينما تصور النفس وتصور الجسم تصوران مشتقان أو تابعان. تسند إلى الشخص خصائص بدنية من شكل ووزن وتغيرات

بدنية كما نسند إليه خصائص نفسية هى حالاته وحوادثه العقلية (ستروصن ومدرسته) .

نعود إلى ما بدأناه . نوافق هيوم ومن ورائه رهط الفلاسفة المعاصرين فى نقدهم لجوهرية النفس إن أردنا وضوح رؤية ودقة فهم . لكنا نلاحظ فى نفس الوقت أنه يمكن تقديم انتقادات هدامة لكثير من النظريات البديلة السابق الاشارة اليها . ومن جهة أخرى نميل إلى الأخذ بنظرية أرسطو فى الجوهر ، وهى أن الجوهر بالمعنى الأصيل هو الفرد أو الشىء الجزئى فى عالمنا الطبيعى ، ونميل الى اعتبار الشخصى أو الانسان الفرد جوهرا بالمعنى الأصيل ، لا لأنه موضوع الحمل بل لأن الفرد أسبق فى تصوره من تصور الحمل (دون أن نلزم أنفسنا بنظرية أرسطو فى النفس) . ومن ثم نقول إن الظواهر النفسية والحالات النفسية والحوادث العقلية لا تتعلق بجوهر لامادى هو النفس وانما تتعلق ابتداء بالشخص ذاته (والشخص الانسانى ليس مجرد جسم وانما هو كائن مادى فريد يختلف عن باقى الاجسام المادية الأخرى). وان تصور الشخص تصور لا يمكن تحليله الى عناصر بل به الوحدة المطلقة ، إنه أسبق من تصور النفس ومن تصور الجسم .

نسند اليه حالات النفس وحوادث العقل ، كما نسند اليه حالات البدن وتغيراته .

(حـ)

التمييز الحاسم بين اسم العلم والمحمول

فى مشكلة جوهرية النفس جانب منطقى بحت نريد الاشارة إليه، وهو أن بعض المناطقة المعاصرين - وأبرزهم كواين Quine — ذهبوا إلى اقتراح لغة مثالية نستغنى فيها عن أسماء الاعلام تماما ونكتفى فى صياغة قضايانا بحدود هى كلها محمولات أو حدود عامة بأنواعها المختلفة ، وكان الدافع إليها

أن تطور البحث فى أسماء الأعلام اكتنفه بعض مشكلات كانت مصدر قلق على تحقيق الصورية فى المنطق . وسوف نشير إلى بعض هذه المشكلات بعد قليل . ووراء هذا الدافع المنطقى البحت عند بعض المناطقة المعاصرين — مثل رسل — دافع ميتافيزيقى آخر ، وهو أن الاستغناء عن إستخدام إسم العلم فى اللغة المقترحة قد يكون أساساً منطقياً للقول الميتافيزيقى أن الشىء الجزئى ليس غير مجموع صفاته ، ومن ثم فلا جوهر وراء تلك الصفات أو المحمولات . ولم يتم بعد وضع مشروع هذه اللغة وضعاً كاملاً منظماً على أى حال .

وقبل شرح هذا المشروع الجديد ، تحسن الإشارة إلى أن هنالك إجماعا بين المناطقة قديمهم وحديثهم — من أرسطو إلى فريجه وبيانو ورسل — وإنتهاء إلى كواين وستروصن Strawson — على وجوب التمييز الحاسم بين اسم العلم والمحمول فى القضية . وهاك أهم وجوه التمييز بينهما :

١ — يدل إسم العلم على معنى مستقل هو إشارته إلى مسماه دون حاجة إلى لفظ آخر يتمم معناه ، بينما المحمول يعبر عن فكر ناقص يحتاج إلى كلمة أو كلمات أخرى لتكمل معناه . حين أقول (الاسكندر) أو (محمد على) أو إسم شخص تعرفه فهمت أنى أتحدث عن الشخص المسمى بذلك الاسم وقفز إلى ذهنك مجموعة من المعارف والأحداث التى ترتبط بذلك الشخص . لكن حين أقول (أحمر) أو (ثقيل) أو أى محمول آخر فانى لا أفهم منها بمفردها شيئاً وإنما سوف أفهم معناها إذا سبقت بشىء ما يسند إليه هذا المحمول ، أو يجب على الأقل أن يوضع المحمول فى صورة (س أحمر) أو (س ثقيل) .

٢ — ليس من الضرورى أن نستخدم إسم العلم فى سياق قضية وإنما يكفينا أنه يسمى شيئاً ما ، وفعل التسمية ليس تقريراً أو حكماً ، لكن لا معنى للمحمول إلا إذا دخل فى سياق قضية ، نضيف إليه فى القضية إسماً جزئياً . وهذه السمة ناتجة عن السمة السابقة .

٣ — لا يوصف اسم بالصدق أو بالكذب لأنه ليس قضية ، بينما المحمول الذى يجب إستخدامه فى سياق قضية يوصف بالصدق أو الكذب . نقول عن إسم العلم فقط إنه دالّ فعلا على مسماه أو أن التسمية غير مطابقة .

٤ — لا يجرى السلب على اسم العلم بينما يجرى السلب على المحمول : لا يوجد اسما علم متناقضين ، وليس سلب الإسم إسماً جديداً وإنما لا معنى له ، لاسقراط، ليس إسماً لأحد . أما إذا سلب المحمول يعطينا قضية مختلفة عن تلك التى جاءت بالمحمول موجباً .

٥ — لا يدخل على إسم العلم كلمات تدل على السور (كل ، بعض ...) بينما تدخل على المحمول تلك الكلمات . (ظن أرسطو أن السور فى القضية متميز من الموضوع والمحمول معاً بينما رأى المنطق الحديث أن السور جزء من المحمول : إذا إستبعدنا الموضوع من القضية فإن المحمول هو ما يبقى) .

٦ — يستخدم إسم العلم ليشير إلى شىء جزئى فريد محدد فى مكان وزمن بينما يستخدم المحمول للوصف وله سمة العمومية[٢١] .

مبحث اسم العلم ومشكلاته :

تحدثنا فى الفقرة السابقة عن اسم العلم دون أن نعطيه تعريفاً . إنه كلمة نسمى بها شخصاً أو مدينة أو دولة أو مكاناً تاريخيا فنقول إن (سقراط) و (القاهرة) و (مصر) و (أهرامات الجيزة) أسماء أعلام . ولاسم العلم عدة تعريفات لعل أدقها هو أنه كلمة لا تدل على محمول أو علاقة وما يمكن أن يدخل فى قضية

---

(٢١) أنظر : Quine, Methods of Logic, London, 1959, P. 204

وأيضاً Geach, Reference and Generality, An Examination of Some Medievol and Modern Theories, New York, 1962, pp. 26 — 32.

لا تحتوى كلمات دالة على السور[٢٢] . لكن البحث فى أسماء الأعلام تطور منذ أيام فريجة حتى الآن ، بحيث يتحدث المناطقة المعاصرون عن « العبارات المشيرة » referring expressions أو Singular terms ويجعلونها تؤدى وظيفة إسم العلم وهى التفرد فى الإشارة ، ولكنها أوسع من إسم العلم مجالا ليس اسم العلم فقط هو الذى يشير إلى شىء جزئى محدد ، وإنما تحدد العبارات المشيرة نفس الوظيفة . ومن أمثلة العبارات المشيرة غير أسماء الأعلام :

(ا) الاسم العام مسبوقا باسم الاشارة وأداة التعريف (هذه المنضدة) أو فى صيغة المضاف (أولاد عمر) ، أو مسبوقا بكلمة (نفس) فى سياق معين (نفس المنضدة) .

(ب) الوصف المحدد أو الفريد الذى لا ينطبق إلا على شىء واحد بعينه مثل (الرجل ذو القناع الحديدى ، ويشير إلى بسمرك ، و « مؤلف كتاب الأيام » ويشير إلى طه حسين ، الرئيس الثانى لجمهورية مصر العربية ويشير إلى محمد أنور السادات) وهكذا . لكن باستبعاد أسماء الشخصيات والأماكن التاريخية نجد أن أغلب أسماء الأعلام لا تدل على التفرد فى الاشارة فإن الأسماء محمد ، على ، إبراهيم وغيرها لا يسمى كل منها شخصاً واحداً فقط وإنما يسمى الإسم الواحد عددا عديدا من الأشخاص ومن ثم لا يحقق إستخدام إسم العلم غايته وهى التفرد فى الإشارة ، ومن هنا نشأت أولى المشكلات فى موضوع أسماء الأعلام — كيف يؤدى إسم العلم وظيفته ومتى يعجز عن أدائها ؟ وهل يجب أن نحدد دائماً — فى إستخدامنا اسم العلم — سياق الحديث ونيات المتكلم وأغراض السامع ؟ وتلك أمور لا يهتم بها المنطق الصورى[٢٣] .

لدينا أيضاً مشكلة ما إذا كان لاسم العلم معنى . الرأى المألوف أن كل معنى إسم العلم هو إشارته إلى مسماه فى الواقع ، وذلك رأى جون ستيوارت مل

---

(٢٢) Russell, My Philosophical Development, London 1959, p 167

(٢٣) Strawson (ed.), Philosophical Logic, London, 1974, p. 6

الذى رأى ان اسم العلم لا تعريف له ، وهو قد سوّى بين التعريف والمعنى وما لا تعريف له لا معنى له . لكن فريجة ناهض هذا الرأى وميز بين ما يسميه معنى meaning اسم العلم واشارته reference فإن (تلميذ سقراط) و(صاحب نظرية المثل) عبارتان مختلفتان فى المعنى وان كانا يشيران إلى شخص واحد بعينه وهو أفلاطون ، ويمكنك الاكثار من الأمثلة: معلم الاسكندر وتلميذ أفلاطون، المنهزم فى ووترلو والمنتصر فى أوسترلتز ، وهكذا . دافع فريجه عن استحالة تعريف اسم العلم لكن رغم ذلك فله معنى مختلف عن مسماه . ويمكن أن نستبدل بالاسم إحدى العبارات التى تدل على المسمى بذلك الإسم . وإن بين الاسم والعبارة الفريدة المطابقة لمسماه تكافؤا منطقيا. ولقد طور رسل هذه النقطة فى نظرية جديدة هى « النظرية الوصفية » Theory of descriptions . اتفق مع فريجه فى بعض مواقفه واختلف عنه فى بعضها الآخر. وسنعرض لهذه النظرية الوصفية بعد قليل . لكن إذا فحصنا عن معنى اسم العلم وجدنا أنه لا معنى لاسم العلم بالمعنى الدقيق لأنك لا تجد اسماء الأعلام مدونة فى المعاجم كما تجد الأفعال والأسماء العامة والصفات الخ ، لكن لإسم العلم معنى من جهة أخرى : إذا كان لدينا قضية بها اسم علم وحكمنا عليها بالصدق واستبدلنا بهذا الاسم اسما آخر فى نفس القضية فقد تغير معنى القضيـة . وتلك مشكلة أخرى فى اسم العلم ليس عليها اجماع بين المناطقة ـــ ما اذا كان لاسم العلم معنى غير اشارته إلى مسماه فى الواقع (٢٤) .

لدينا مشكلة ثالثة هى اسم العلم بين الواقع والخرافة . لكل الحدود التى كان أرسطو يستخدمها فى منطقه ما صدقات فى الواقع ، سواء كانت أسماء أعلام

---

(٢٤) أنظر : Ayer , « Names and Descriptions » in « The Concept of A Person and Other Essays , London , 1963 , p. 129.

أو أسماء عامة أو صفات ولم يعرف الحدود العامة الفارغة (ما ليس لها ما صدقات فى الواقع) . إلى جورج بول فى القرن التاسع عشر يرجع الفضل فى ادراك أهمية تلك الحدود الفارغة ، من أمثلتها الدائرة المربعة والأعداد الزوجية الأولية أكبر من العدد ٢ والحصان ذو القرون Unicorn ونحوها . وقد اكتشف المناطقة المعاصرون أنه لا توجد فقط حدود عامة فارغة وإنما توجد أيضا أسماء أعلام لا تشير إلى كائنات واقعية مثل ايزيس ، أوزوريس ، زيوس الحصان المجنح Pegasus كإسم لحيوان معين فى شعر الأساطير اليونانية القديمة ، والكلب ذو الرءوس الثلاثة ويحرس مدخل الجحيم Cerebrus فى نفس الأساطير ، وقد أدت هذه الأمثلة إلى حيرة بعض المناطقة وشكهم فى تعريف اسم العلم بأنه ما يشير إلى شيء جزئى فى الواقع . وقد رأى فريجه أنه على الرغم من أن اسم العلم الخرافى لا يشير ، فلا زال له معنى إذا دخل فى قضية ، ففى القضية « أوذيوس قذف به إلى شاطيء إتاكا وهو نائم » نجد أن للموضوع معنى وهو ذلك البطل الذى قام بالبطولات الحربية فى الأساطير اليونانية . لكن فريجة أشار إلى أنه على الرغم من أن لإسم العلم الخرافى معنى ينبغى ألا نستخدمه فى لغة منطقية صورية . واذا جاء فى قضية فى المنطق فلن تكون القضية صادقة ولا كاذبة وانما لا معنى لها . ومن جهة أخرى حين طور رسل هذه النظرية لفريجه فى نظريته الوصفية اختلف فى الرأى عن فريجه . من بين نقط رسل المنطقية فى نظريته الوصفية اننا اذا أتينا بقضية موضوعها عبارة وصفية محددة لكنها لا تشير الى شيء معين فإن القضية لا زال لها معنى وتقبل الصدق والكذب ، وحين نكتشف أن هذا الوصف المحدد لا يشير فتصبح القضية - التى تحوى هذا الوصف - كاذبة . مثل « ملك فرنسا فى القرن العشرين أصلع » أو « زوجة هتلر ماتت فى المنفى » ، ونحو ذلك . لكن لا اجماع بين المناطقة اليوم على موقف رسل ، فمنهم من انضم الى رأى فريجه فى أن القضية التى تحوى الوصف المحدد الذى لا يشير الى أحد فى الواقع لا معنى لها بحيث لا أساس لسؤالنا هل

هى صادقة أو كاذبة . ذلك لأن العبارة الوصفية المحددة إذا دخلت فى قضية فإنها تفترض ضمناً أن لها مسمًّى واقعياً ، فإذا قلت أولاد جون نائمون فلا تكون صادقة أو كاذبة إلا إذا كان لجون فعلا أولاد ، ولا معنى لقولك أولاد جون نائمون لكن ليس لجون أولاد(٢٥) . وهنا نجد عددا من المشكلات المتشابكة : على الرغم من أن الوظيفة الأساسية لإسم العلم يدل على التفرد فى الإشارة فليس كل معناه أن تشير إلى شىء فى الواقع المحسوس فقد تشير إلى شىء خرافى أو غير موجود فى الواقع ، ولعل هذا ما دفع كواين إلى تقديم تعريف جديد لإسم العلم وهو أنه « يدل على تسمية شىء ما لكنه لا يملك ضمانا أن هذا الشىء يجب أن يكون حاضراً الآن فعلاً أو أنه على وشك الظهور »(٢٦) . أضف إلى ذلك أن الخلاف لا زال قائماً بين فريجة وستروصن واتباعهما من جهة ورسل وكواين ومدرستهما من جهة أخرى حول ما إذا كانت القضايا التى تحتوى عبارات مشيرة (أو أوصافا محددة) يجرى عليها الصدق والكذب أم أنه لا معنى للحكم عليها بالصدق أو الكذب .

ولقد برزت أيضا مشكلة جديدة فى مبحث أسماء الإعلام نتجت عن النظرية الوصفية لرسل . يمكن إيجاز هذه النظرية فيما يلى :

(ا) هناك تمييز حاسم بين إسم العلم والمحمول ، أو بين اسم العلم والوصف الفريد الذى لا ينطبق إلا على مسماه . بين الموضوعين فى القضيتين التاليتين إختلاف منطقى أساسى وإن كان الموضوع فى القضية الثانية يشير إلى نفس موضوع القضية الأولى : هومر أديب يونانى ، مؤلف الإلياذة أديب يونانى .

Strawson, Introduction to Alogical Theory, London, 1952(٢٥)
P. 175

وأيضاً : Strawson, Singular Terms Prediction, in Strawson, (ed.), philosophical Logic

Quine, Methods of Logic, London, 1952, P. 197 (٢٦)

(ب) لا يمكن إستخدام اسم العلم إلا إذا كان لمسماه وجود واقعى، لكن يمكن إستخدام العبارة الوصفية المحددة حتى دون أن نعرف مسماها بل حتى لو لم يكن لها ما صدق فى الواقع. «ملك فرنسا فى عام ١٩٧٠ محبوب» قضية لها معنى وتقبل الصدق أو الكذب حتى لو لم يكن فى فرنسا نظام ملكى فى تلك السنة. وقد نشأ عن هذه النظرية لرسل موقفان له فى الأنطولوجيا:

(أ) على الرغم من الاختلاف المنطقى الحاسم بين اسم العلم والعبارة الوصفية المحددة فإنه يمكن إعتبار الإسم اختصارا لهذا الوصف المحدد.

(ب) قد يكون لإسم العلم المألوف عدة مسميات ومن ثم لا يعود له التفرد فى الإشارة ولذلك يجب التمييز بين اسم العلم مثل محمد وعلى وابراهيم واسم العلم المنطقى مثل: هذا، ذاك، هنا، الآن، أنا، أنت. ويكون اسم العلم المنطقى أكثر تحقيقاً لوظيفة التفرد فى الإشارة من اسم العلم المألوف. لكن النقاد رأوا فيما بعد أن ما سماه رسل اسم العلم المنطقى لا يحقق التفرد فى الإشارة لأن دلالته تختلف من شخص لآخر وإذا كان مرتبطا بالوضع المكانى والزمنى للمتكلم فلن يجوز أن يستخدمها عدة أشخاص ويدلون بها دلالة فريدة بل لا يجوز أن يستخدمها شخص آخر فى أوقات مختلفة(٢٧). وأصبحنا الآن أكثر شكا من ذى قبل فى أداء اسم العلم وظيفة التفرد.

نظرية رسل فى استغناء اللغة عن أسماء الأعلام:

لقد دعا كواين Qiune — أكبر المناطقة المعاصرين فى الولايات المتحدة وأقواهم تأثيرا — الى مشروع لغة مثالية رمزية تحقق كل أغراضها النظرية يقترح فيها الإستغناء عن أسماء الأعلام Elimination of Proper names نتيجة لما رأى من المشكلات الناشئة عن البحث المتطور فى موضوع اسم العلم، وسعياً منه لتحقيق صورية

---

(٢٧) Ibid, P. 203

وأيضاً: Ayer, Names and Descriptions, P. 157

المنطق الرمزى الحديث فى أنق درجاتها . وقد أثار بهذه النظرية إهتمام كثير من المناطقة مناقشة وتحليلا وتأكيدا لموقفه أو هجوما عليه . لكننا نجد بذور هذه النظرية عند رسل . لقد كان رسل واضحاً فى نظرياته المنطقية — وخاصة فى نظريته الوصفية — فى ضرورة التمييز بين اسم العلم والمحمول أو بين اسم العلم والعبارة الوصفية المحددة التى تطبق على مسمى هذا الاسم دون غيره . لكنه رأى فى مجال الميتافيزيقا أن استخدام اسم العلم فى اللغة العادية والمنطقية على السواء أساس للقول بوجود جواهر . إن قلنا هذا أحمر ، فإن ما نشير إليه يكون شيئا يضم كل الصفات التى تسند إليه ورغم ذلك يكون متميزا من تلك الصفات ومن ثم نقع فى القول إن هذا الشىء موضوع الحمل شىء مجهول وهو جوهر . ولذلك يقترح ترجمة القضية « هذا أحمر » إلى « الحمرة هنا » ، وحينئذ نعتبر «أحمر» اسما لا محمولا ويصبح الشىء ليس غير مجموع صفاته . لكن تعترضنا هنا مشكلة عمومية الصفة أو المحمول ، وما هو عام لا يكون جزئيا فرديا متعينا ، ولذلك فإن رسل يتغلب على هذه الصعوبة بقوله إنه يمكننا تحديد الصفات الحسية بمكان محدد وزمن محدد. فإذا رمزنا إلى مجموعة صفات شىء ما بالرمز س وقلنا إن : س مجتمعه هنا ، جاءت س إسما لا صفة , الصفات أسماء فى العربية لكنها متميزة من الأسماء فى اللغات الهندية الأوروبية) ، وأصبح الشىء مجرد مجموع صفات حسية متعينة فى مكان واحد وزمن واحد . قد يقال أيضاً إن القضية : س قائمة فى مكان وزمن محددين ، سوف تصبح قضية تحليلية لأن المحمول لم يضف جديدا إلى الموضوع ، رغم أن القضية تجريبية ، فنقع فى خطأ منطقى وهو الخلط بين القضية التحليلية والقضية التجريبية . يحاول رسل التغلب على هذا الاعتراض بقوله إن القضية ليست تحليلية لأن من الممكن ادراك مجموعة صفات حسية ونعطيها اسما واحداً دون أن نتعرف على كل صفة فى هذه المجموعة واحدة واحدة(٢٨) لكن يبدو أن رسل لم

---

(٢٨) Russell, An Inquiry Into Meaning and Truth, London, 1940, PP. 95—100

يقتنع بموقفه ذلك نتيجة لمواقفه المنطقية الراسخه ومنها أن اسم العلم متميز من الناحية المنطقية عن المحمول ، ومن أن القضية الشخصية التي يكون موضوعهااسم علم (وهي القضية الحملية بالمعنى الدقيق في المنطق الرمزي) نوع أصيل . من أنواع القضايا في المنطق ولا يمكن رده إلى نوع آخر . ولذلك نجده حين يتساءل عما إذا كان من الممكن ابتكار لغة ليست بها أسماء اعلام وعلاقات يجيب بأنه عاجز تماماً عن تخيل مثل هذه اللغة ، ولا يعني هذا أن تلك اللغة الجديدة مستحيلة وإنما يعني تقريراً شخصيا عن عجزه في وضع كل مفردات هذه اللغة بحيث تتألف جميعاً من أسماء عامة وصفات[29] .

ويمكن نقد هذه النظرية لرسل على أسس مختلفة . يمكن نقده أولا من واقع منطقه . قال في نظريته الوصفية إن القضية التي يكون موضوعها اسم علم والقضية التي يكون موضوعها عبارة وصفية محددة لاتشير إلا إلى مسمى ذلك الاسم لن يكون بينهما تكافؤ منطقي . فالقضية الاسكندر علاق عسكري ليست مكافئة منطقيا للقضية مؤسس مدينة الاسكندرية علاق عسكري ، على الرغم من أن موضوع القضية الثانية وصف محدد فريد يخص الاسكندر وحده ، وحجة رسل في ذلك أن ليس بين المسمى والعبارة الوصفية الفريدة علاقة منطقية ضرورية وإنما علاقة حادثة كان يمكن ألا تتم . إنه أمر حادث لاضرورة فيه أن الاسكندر بنى الاسكندرية . فإن صح النقد فلن يكون أي وصف — مهما كان فريدا — لشيء ما مساويا من حيث المنطق لذلك الشيء . الشيء دائماً أكثر من مجموع صفاته لكن لايعني هذا أن نذهب مذهب لوك أن الصفات شيء وجوهرها أو حاملها شيء وتجريبي آخر . يمكن نقد رسل ثانيا بقولنا إنه وقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه لوك على الرغم من أن هدفه من نظريته (أن الشيء المادي ليس أكثر من مجموع صفاته وأن العقل ليس أكثر من مجموع خبراته) هدفه هو

---

(29) Ibid., P. 94

رفض نظرية لوك فى الجوهر . الخطأ المشترك هو إعتبار الصفة الحسية شيئا يوجد فى مكان ، مع أنها ليست شيئا حسيا على الإطلاق : إن مايوجد وجودا حسيا فى مكان إنما هو الشيء الجزئى ذاته كالمنضدة أو القلم أو الشجر الخ ومن مفارقات اللغة أن نتحدث عن « صفات حسية » مع أنها فى الواقع صفات مجردة بمعنى أن الحمرة أو الشكل أو الصلابة فى ذاتها ليست موضوع إدراك حسى . وما يكون موضوعا للإدراك إنما هو الشيء المحسوس بذاته ، وماصفاته سوى المظاهر أو الجوانب التى يبدو لنا هذا الشيء بفضلها .

نظرية كواين

لعل كواين وجد فى اعتراف رسل السابق الإشارة إليه — أن مشروع الإستغناء عن أسماء الأعلام ممكن — حافزاً لتطوير موقف رسل وممارسة قدراته فى تحقيق ماأعلن رسل فشله فيه . لكن بينما كان هدف رسل من مشروعه ميتافيزيقيا ، كان هدف كواين منطقيا بحتا لتحقيق أعلا درجة فى صورية المنطق . ذلك لأنه يعلن أن مشروع إلغاء أسماء الأعلام من اللغة المقترحة لايفقد اللغة الحديث عن الأشياء الجزئية وإنما يؤدى فقط إلى إعراب إسم العلم إعرابا مختلفا . وتتلخص نظريته فى نقطتين : الأولى تضييق نطاق التعبير عن الأشياء الجزئية لتنحصر فى رموز هى المتغيرات الفردية التى ترد فى صيغ حساب المحمول أو حساب دالات القضايا ، ونعوض عن هذه المتغيرات بأسماء أشياء جزئية ، ومن أمثلة هذه الصيغ قولنا «يوجد شيء ما ه بحيث أن ه هى ا ، وأن هذه الدالة صادقة أحيانا . والرمز ه قيمته إسم علم ، والرمز ا يدل على محمول أو وصف . وتكون الدالة صادقة إذا عوضنا عن المتغيرات بحكم صادق . النقطة الثانية هى سعينا نحو استبدال وصف محدد فريد بإسم العلم حين نعطى المتغير الفردى قيمته . فبدلا من وضع اسم العلم قيمه لهذا المتغير نحاول البحث عن وصف فريد أو مجموعة أوصاف لاتنطبق إلا على شيء واحد بعينه ، وبذلك نحصل على

دالة قضية (والقضية فى صورة رمزية أى فى صورة متغيرات وثوابت) تتألف كلها من رموز إلى محمولات، ولم تعد بناحاجة إلى أسماء أعلام . ويوضح كواين موقفه أن الوجود هو البحث عن قيمة المتغير to be is to be a valve of a variable ، والمقصود أن كل دلالة الاسم هو التفرد فى الإشارة فإذا أمكن تحقيق هذه الوظيفة باعطاء وصف فريد لشيء ما فقد أصبح هذا الوصف قيمة صادقة لستبدلها باسم العلم . وبذلك تتفادى كل المشكلات الناشئة عن مبحث اسم العلم [٣٠] .

هنالك من المناطقة المعاصرين من يدافع عن هذا المشروع لكن ليس عليه إجماع ، ولازال موضوع مناقشات حامية . يمكن تقديم الانتقادات الآتية إلى مشروع كواين :

١ ـ يتجاهل كواين نقطة منطقية راسخة أقرها فريجة ورسل ودافع هو عنها هى أننا فى الصيغة الرمزية للقضية الوجودية «يوجد شيء ما هـ بحيث يكون...» لا يمكن أن نعوض عن هـ باسم علم وإنما يجب أن نعوض عنها بمحمول دائما ، حتى تصبح القضية الوجودية مؤلفة من محمولين من مستويين مختلفين . نقول يوجد فلاسفة لكننا لانقول يوجد سقراط . ليس للقضية الأخيرة معنى . نقول يوجد جذر تربيعى للعدد ٤ ، ونقول أيضاً إن العدد ٢ قيمة للمتغير ، لكنا لانقول يوجد العدد ٢ . « الفلاسفة » محمول يسند إلى بعض الناس ، أما «يوجد » فهى محمول من الدرجة الثانية يسند إلى الفلاسفة بمعنى أنه يمكن الحديث عنهم أو التفكير فيهم لكن لامعنى للقول يوجد سقراط .[٣١]

---

(٣٠) انظر : Quine, Methods of Logic, P. 224
وايضا Geach, Reference and Generality, P. 161

(٣١) Ibid, pp. 161 — 2
وايضا Strawson (ed.), Philosophical Logic, PP. 83 — 5

٢ — نعم لم يرد كواين أن يستخدم أسماء الأعلام بل أراد إلغاءها وإستبدال محمولات أو أوصاف محددة بها . إما أن يكون الوصف فريدا يدل على شيء واحد دون غيره أو غير فريد يدل على أكثر من شيء جزئي . الأصل في الوصف أنه محمول وبالمحمول صفة العمومية لاالتفرد في الاشارة ، لكن كواين يقترح محاولة البحث عن محمول فريد يحقق هذا التفرد . فهل هذه المحاولة ممكنة ؟ إن كانت ممكنة كأننا وصلنا إلى معنى دقيق لمسمى اسم العلم وذلك بمثابة تعريف لكن لاتعريف لاسم العلم . فالأغلب إذن أن المحاولة غير ممكنة أى أن البحث عن وصف فريد يحقق التفرد لا يمكن الوصول إليه بشكل واضح حاسم .

ومما يؤيدنا في ذلك أن كواين نفسه يعلن أن لاترداف أو تكافؤ بالمعنى المنطقى بين الأسم والوصف الفريد . نخلص من ذلك إلى القول أن بالامكان الإتيان بوصف مناسب يصدق على شيء ما ويحقق التفرد في الإشارة بحيث نميزه من غيره من الأشياء لكن لن يكون هذا الوصف بديلا باسم العلم .

خلاصة : إن صحت الانتقادات السابقة على مشروع اللغة المثالية التى يراد بها الاستغناء عن أسماء الاعلام ، فإن هدف أصحاب المشروع لم يتحقق وهو إلغاء مقولة الجوهر . ونعود إلى حيث بدأنا . قام تصور الجوهر عند كثير من الفلاسفة على تصور الحمل في المنطق والوصف في اللغة تصورا أولياً ، لكننا أوضحنا في الجزء الأول من هذا الفصل أن تصور الفرد وإعتباره جوهرا أكثر سبقا واوليا من تصور الحمل ، وان التصور الأول اساس التصور الثانى . وصلنا في الجزء الثانى من هذا الفصل إلى ان الظواهر النفسية والحوادث العقلية لاتُسند إلى جوهر — يسمونه النفس او العقل — يختلف عن هذه الظواهر متميز منها ان اردنا وضوحا في التصور ودقة في التفكير . لانريد انكار تصور الجوهر لكننا نريد إنكار النفس جوهراً . نميل إلى تطبيق مقولة الجوهر على الإنسان الفرد ذاته ومن ثم نسند الحالات النفسية إلى هذا الانسان الفرد كما نسند إلى نفس الفرد حالاته البدنية وتغيراته الفسيولوجية .